مترجمًا إلى اللّغة العربيّة وعن دار «الأماني للنّشر والتّوزيع»:

ديوان «الزّمن» للشّاعرة العبريّة البروفيسور حمو طال بار يوسيف يرى النّور

حمو طال بار يوسف

بقلم: علي هيبي

صدر في أوائل هذا العام، 2025، عن دار «الأماني» في عرعرة ديوان الشّاعرة العبريّة الإنسانيّة البروفيسور حمو طال بار يوسيف بعنوان «الزّمن»، وقد صدر مترجمًا إلى اللّغة العربيّة بغلاف يحمل صورة الشّاعرة، كي يكون الدّيوان نافذة للقارئ العربيّ في هذه البلاد ليطّلع ويتعرّف على وجه إنسانيّ من الشّعر العبريّ الحديث، من خلال إبداع شاعرة من بلادنا. وقد قام الأديب والمربّي مفيد صيداوي مدير دار «الأماني» ومحرّر مجلّة «الإصلاح» بالإشراف على إصدار الدّيوان الّذي ضمّ حوالي 90 قصيدة انتشرت على 125 صفحة من القطع الصّغير، وقد ترجم صيداوي 14 قصيدة من قصائد الدّيوان، وترجمت الشّاعرة نداء خوري 40 قصيدة، وكذلك ترجم الشّاعر المرحوم نعيم عرايدي 36 قصيدة. وممّا يجدر ذكره أنّ الأديب عبد الرّحيم الشّيخ يوسف قام بمراجعة التّرجمة لغويًا فأسهم من جانبه بتحضير الديوان للطّباعة. وقد صمّم الدّيوان ونضّده مكتب «قادر» لصاحبه محسن عبد القادر في مدينة «الطّيّبة».

وقد تحدّث صيداوي في مقدّمته عن الدّيوان ونقل تجربته مع الشّاعرة ومع شعرها، الّتي كان ينشرها مترجمة إلى العربيّة تباعًا في مجلّة «الإصلاح» لأنّ القصائد كما قال: «لم تكتب في زمن واحد أو في وقت واحد، بل في أوقات مختلفة، وتعبّر عن فترات زمنيّة مختلفة وأمزجة مختلفة، وقد تقرّر تسمية الدّيوان ب «زمن» ويقابله في اللّغة الشّقيقة العبريّة «זמן» والكلمة تحمل نفس الحروف الهجائيّة باللّغتيْن: العربيّة والعبريّة. وهناك قصيدة في الدّيوان تحمل نفس الاسْم».

وقد ذكر صيداوي في بداية المقدّمة بعضًا من مسيرة حياة الشّاعرة الّتي تعرّف عليها قبل بضع سنوات، وقد استضافها في مجلّة «الإصلاح»، كضيفة الشّرف في أحد أعداد المجلّة. وقد كانت الشّاعرة صديقة لمجلّة «الإصلاح» وقد شاركت بالاحتفال الّذي أقامته دار «الأماني» في يوبيلها الذّهبيّ، بمناسبة مرور خمسين عامًا على صدورها، فقد حضرت الاحتفال وألقت كلمة إنسانيّة مؤثّرة عن دور الأدب والشّعر في تقريب الشّعوب، وبخاصّة بين الشّعبيْن: اليهوديّ والعربيّ. وكان في مجلّة «الإصلاح» زاوية بعنوان «نافذة على الشّعر العبريّ» لها دلالة خاصّة في هذا السّياق.

ويشار إلى أنّ للشّاعرة بار يوسيف ديوانا آخر سبق هذا الدّيوان بعنوان «عندما أبقى وحدي» ترجمه إلى اللّغة العربيّة الشّاعر البروفيسور نعيم عرايدي، سنة 2010. والشّاعرة حمو طال زيادة على أنّها شاعرة وأديبة، فهي باحثة في الأدب، وهي مترجمة للشّعر من اللّغة الرّوسيّة والإنجليزيّة والفرنسيّة، وقد ترجمت قصائدها وكتبها إلى لغات كثيرة، وحازت على الكثير من الجوائز الأدبيّة، ولحّنت أشعارها، وهي تعتبر ناشطة إنسانيّة من أجل الأطفال الفلسطينيّين الّذين يحتاجون لغسيل الكلى «الدّياليزا»، وهي ناشطة في المجال الاجتماعيّ أيضًا. وقد ظهرت هذه المعلومات على الغلاف الخلفيّ للدّيوان. وعبّرت عن حماسها ونشاطها في تقريب الشّعبيْن: اليهوديّ والعربيّ من خلال الأدب الإنسانيّ، وذلك بالاستجابة لفكرة صيداوي الّتي نقلها لها.

(كابول – الجليل).

الإصلاح: معكم مع أبنائنا وبناتنا مع الحياة الحرة الكريمة في وطن الآباء والأجداد، ضد العنف المجتمعي... نحن أهل واخوة في هذا الوطن الجميل.

الإنسان بطبيعته وُجد ليعيش مع غيره من الناس، ولا يجد سعادته إلّا برفقة أنيس يُؤنسه ويُشاركه في حياته، والرجل وجَد أنيسَه في المرأة، والمرأةُ وجدَتْه في الرجل. ولا يختلف محمد الأصغر عن غيره من البشر، فما كاد الأسبوع الثالث ينقضي على فراقه لسناء حتى بدأت الوحدةُ تُزعجه، وإهمالُ الناس له يُضايقه، وشوقُه لأنيس يملأ عليه حياتَه يُدغدغ مشاعرَه ويذكّره بكلام عجائزِ حَيّه «أعزب دهر ولا أرمَل شهر».

وكانت لحظةُ التّحوّل بدخول جارته الأرملة أسمهان التي فقدت زوجَها قبل خمسة أشهر من جرّاء إصابته بفيروس الكورونا عليه بجسدها الطويل الفتّان بما يبعثه من إثارة وجاذبيّة مثيرة للفضول. جاءت أسمهان كما قالت لتأخذَ ملابسَ المرحومة سناء للتبرع بها صَدَقة عن روحها لمَن تحتاج إليها من النساء. (ص22) لكنّها بتلميحات جنسية واضحة قالت له:

-كانت سناء غاطسة في النّعيم معك.

وتابعت بكلماتها المُثيرة له: انتبه لنفسك، طوال سنوات وهي تمصُّ دمَك، وأنت تكتبُ عنها يا عيني أحلى كلام. (ص23)

وتركته يستعيد كلماتها ونغَمَة صوتها وتلميحاتها، وفي أحلام ليله بدأت تُزاحمُ سناءَ في الاستئثار به. تأتيه سناء بقميص نومها الداخليّ، تقتربُ منه وتنام إلى جواره ملتصقة به بشغف وإذا ما فتح عينيه ونظر إليها يكتشف أنها أسمهان بكل ما لديها من شَبَق ومكبوتات فيُشَدُّ إلى جسدها الفتّان النّابض بالحياة. (ص28)

وهكذا بدأت الأيام تُبعد بمحمد الأصغر عن سناء وذكراها، فالبعيدُ عن العَين بعيدٌ عن القلب. وأخذت الحياة تفعل فعلَها، ووجد نفسَه وقد استسلم للنوم يحلم «كمَن يقف على مَفْرق طرق، مهموما حائرا مُشتّتا» وكان رهوان المُنقذَ له من حيرته بأنْ جاءه وعرض عليه الخروجَ من سجنه البيتي إلى مكان سيجد فيه الرّاحةَ والاستمتاع، ولم يتردد محمد الأصغر ولم يستفسر، فقد كان راغبا في الخروج من حالة الحزن والحيرة والضّياع، ارتدى ثيابه وتعطّر كما لو أنه ذاهب إلى حفل استقبال. (ص29)

وأخذه رهوان إلى بيت «فريال» التي تبيع المُتعة لطالبيها مَن مُحبّي المغامرة.. وكنّا قد تعرّفنا على بيت فريال في مجموعة «نوافذ للبوح والحنين ص203، ووجد محمد الأصغر نفسَه مندفعا نحو فريال بجسدها الجميل «وقوامِها الرّشيق وتنورتِها القصيرة التي تكشف مساحةً غير قليلة من فخذَيْها، وبلوزتِها التي تنمُّ عن نهدين مُكتنزين وهي تنثر شعرَها على صدرها في حركة إغراء، (ص30) وسارع رهوان الذي لاحظ اندفاعَ محمد الأصغر نحو فريال بتَقديمه لها بقوله: «أقدّمُ لك أحدَ أبناء عائلتي، العم محمد الأصغر، محرّر الكتب ومُصحّح الصحف قبل صدورها وذهابها إلى القرّاء، الذي ماتت زوجته قبل أسابيع ، وهو الآن فاقدٌ مُلتاعٌ، محتاجٌ إلى مَن تُسْري عنه وتقتلعُ الحزنَ من صدره وتمنحُه الحبّ والحنان.» وفاجأته في هذا الموقف زوجته سناء تُعاتبه وتؤنّبه على فعلته قائلة:

-ما الذي تنوي أن تفعله يا محمد؟ هل وقعتَ في حبائل رهوان؟ وإلى أين يأخذُك هذا الدّاشر وأنتَ عجوز طاعن في السّن؟!!

فتضايق، وكاد يشتبك معها في شجار، وقال لها بغضب:

-اسمعي يا سناء، نامي واتركيني أنام» (30-32)

وقرّر بعد زيارته لقبر سناء ألّا يعود مرّة ثانية لزيارته، وحتى انجذابه إلى الكَنَبة التي كان يجلس هو وسناء عليها خفّ وانصرف إلى مراقبة بيوت الحيّ من خلف زجاج شرفته. وبدأت أسمهان تُشغله فيتذكّر حديثها عن النسيان بمرور الزمن، ويندفع في قراءة كتابي ماركيز وكاواباتا عن الجميلات الصغيرات النائمات، ويشدّان به ليحذو حذوهما فيكتب رواية شبيهة لما كتبا.

وهنا كانت المشكلة، ومنها إنبثق الحلُّ.

المشكلة في الصيغة التي يُقدّم فيها الكاتبُ تفاصيلَ مغامراته الماضية والتي يفكر بالخَوض فيها مُتَشَبّها ببطلَي ماركيز وكاواباتا للقارئ العربي المحافظ الرّافض لما يمسّ العادات والتقاليد والمُعتقدات الدينيّة.

ووجد الحلّ السّريع في إمكانيّة البَوح بكل أسرار حياته الخاصّة الماضية والحاضرة، ويبدو للقارئ فلي ذات الوقت مثالَ الطهارة والنّقاء والالتزام بكلّ مَفاهيم المجتمع الذي يُعايشه، وذلك باختياره كتابة رواية لما تُتيحُه له الرواية من الحريّة في بناء عالم كما يحلو له، تعيش فيه نماذج متنوّعة ومتناقضة من النّاس، تتصرّف كما تريد.

ووجد في «الواقعيّة السّحريّة» المَخْرَج الأمثل، وكان قد فعل ذلك في أعمال سابقة له، وأتى بشخصيات يرفضها المجتمع المُحافظ مثل شخصيّة المغنية شاكيرا والرّاقصات العاهرات في «نوافذ للبوح والحنين»، ورهوان بكل أفعاله المُنافية لمفاهيم مجتمعه. ولم يثُر أحد على الكاتب، ولم تُوَجّه إليه سهامُ الاتّهام بالخيانة والدّعارة ونَشْر الفَساد. كما أنّه أتى بشخصيّات مشهورة ومحبوبة مثل لاعب كرة القدم البرازيلي رونالدو ومايكل جاكسون ورامبو وهو يرى «أن المَزج والتّقابل والتّعايش وتبادل التّأثير، وخلط الواقعي بالخيالي الذي يتبدّى في قصصي التي تحمل أسماء هؤلاء النجوم، يقود المتلقي إلى حالة من التأمّل ومن التفكير في أوضاعنا التي تصل حدّ السرياليّة حينا، والضّحك المُبكي حينا آخر». (أنا والكتابة ص80)

وهو في قَصّه هذا استحضر شخصيات بطلَي ماركيز وكاواباتا وكذلك ماريا زخاروفا الروسيّة، وكُثرا من الذين ذكرهم في قصصه ورواياته السّابقة. وتحاشى السّهامَ ضدّه بجعل محمد الأصغر يقوم مقامَه ويظهر بدلا منه أمام الناس.

يتبع

(الرّامة – الجليل).